مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies
تعليقات

التداعيات الاقتصادية والسياسية للحرب الروسية الأوكرانية في إفريقيا

د. محمد السبيطلي

شعبان ١٤٤٣هـ - مارس ٢٠٢٢م

تتجه أحداث الحرب الروسية الأوكرانية إلى منعطف تاريخي؛ ليس فقط للقارة الأوروبية، ولكن أيضا لإفريقيا والعالم عموما؛ فمنذ نهاية الحرب الباردة، لم يشهد العالم حدثا بارزا ومؤسِّسا لمسار جيواستراتيجي مفصلي، مثلما نحن بصدد مشاهدته اليوم مع العملية العسكرية الروسية في أوكرانيا. آثار ذلك قد تختلف من قارة لأخرى، وكذلك من بلد لآخر، وذلك بحسب الاندماج في الاقتصاد العالمي، والتبعية بصورة أو بأخرى للعلاقات السياسية والاقتصادية مع روسيا، والقمح الأوكراني، أو لنقل الأسواق العالمية للمواد الأولية الإستراتيجية غذائية كانت أو صناعية، خاصة ونحن في قارة ما زالت تعاني من تبعات جائحة كورونا الاقتصادية؛ فثلثا ما يستهلكه الأفارقة من القمح، يستورد من الأسواق الخارجية. وكانت الأزمة الاقتصادية العالمية لسنة ٢٠٠٨م، قد تسببت في انتفاضات واحتجاجات شعبية في العديد من دول القارة، بسبب ارتفاع أسعار المواد الغذائية[١]. واليوم نعيش سياقا عالميا شبيها، مع تشابكات أكثر تعقيدا، باعتبار أن جذور الأزمة الأوكرانية، هي سياسية في الأساس، وأن لها تبعات اقتصادية أكيدة، بفعل العقوبات الدولية على روسيا، وتعطل بعض خطوط الإمداد الغذائية، وارتفاع الأسعار في الأسواق العالمية، لذلك - وبسبب عمق وتنوع التشابك السياسي والجيبوليتيكي والاقتصادي بين إفريقيا وروسيا - فإن مسار الحرب في أوكرانيا، ومآلاتها ومداها الزمني، سيكون له تداعيات سياسية مهمة، يجدر رؤية ذلك بحسب السيناريوهات الممكنة، التي قد تكون لهذه الأزمة العالمية.

منذ عقدين من الزمن، اتجهت روسيا نحو اتباع إستراتيجية اختراق جديد للمجال الإفريقي، بعد أن كان قد تراجع وجودها منذ سقوط الاتحاد السوفياتي، وهو أمر يذكر بأهمية حضورها في العديد من دول القارة في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي. وكان تأكيد حضورها في القارة الإفريقية يتم عبر اتفاقيات تعاون عسكري، وكانت البدايات لذلك منذ ٢٠١٠م، إلا أن سنة ٢٠١٧م، شهدت تكثيف عقد مثل هذه الاتفاقيات الروسية الإفريقية، وكانت مضامين تلك الاتفاقيات تتمثل في إرسال موسكو مستشارين عسكريين، والتدريب والاستخبارات والتجهيزات، ويأتي عمل مجموعة «فاغنر» ضمن هذا السياق، رغم أنه تشكيل عسكري قتالي غير رسمي[٢]. وقد تكون وتيرة الشراكات الثنائية بين روسيا ودول إفريقيا جنوب الصحراء، قد ازدادت بعد قمة سوتشي لسنة ٢٠١٩م.[٣] ومهما يكن من أمر، فتظل روسيا ومنذ ٢٠١٤م، أكثر الدول المصدرة للسلاح إلى إفريقيا[٤].

التداعيات الاقتصادية والسياسية للحرب الروسية الأوكرانية

آثار الحرب الروسية الأوكرانية على القارة الإفريقية ستكون حادة وقاسية، وخاصة في حال تحولت إلى حرب استنزاف، وطويلة الأمد. و على المدى المنظور قد تكون الارتدادات ثقيلة نسبيا، لكنها غير حاسمة، وسينعكس ذلك على ارتفاع أسعار الكثير من المواد الاستهلاكية، وخاصة منها الغذائية، والمرتبطة بالمستورد من منطقة البحر الأسود، مثل: الحبوب والزيوت الغذائية، ونخص بالذكر هنا القمح والذرة والشعير وزيت دوار الشمس والأعلاف الحيوانية، وهي السلع التي ارتفعت أسعارها عالميا مباشرة، مع بدء العمليات العسكرية الروسية.

فجميع الدول الإفريقية تقع في قائمة المستوردين للحبوب[٥]، وللقمح بشكل أساس، ثم الذرة؛ ذلك أن الكثير من الدول تعتمد في غذائها اليومي على المشتقات منهما، مع غلبة المواد المتأتية من القمح، باعتبار أن الوضع السائد في إفريقيا، يتجه إلى الحد من استهلاك الذرة المحلية، ويتجه نحو مشتقات الأنواع الجيدة من القمح، الصالحة لصناعة الخبز والمعجنات ومختلف أنواع المأكولات، مما يؤدي بالتالي إلى التبعية شبه التامة للمستورد من هذه المواد الغذائية الأساسية، وخاصة المستوردة من روسيا وأوكرانيا. وكانت بعض دول غرب إفريقيا، قد تبنت سياسات نحو تحقيق الحد الأدنى من الاكتفاء الغذائي الذاتي، في مجال بعض الأصناف من الحبوب، وذلك في إثر أزمة فترة ٢٠٠٨-٢٠٠٩م، إلا أن النتائج اليوم لا تبدو في المستوى الذي يمنع تكرر الأزمات، و«ثورات الجوع»[٦]. مع الأخذ بعين الاعتبار، أن إفريقيا في سنة ٢٠٢٠م، كانت تستورد ٦٥٪ من حاجياتها من القمح، و١٩٪ من الذرة، و٤٠٪ من الأرز[٧].

سيكون مدى التأثر على العديد من الدول الإفريقية والعربية على المدى القريب، تابعا لحجم المخزون الغذائي الإستراتيجي الذي تمتلكه كل دولة؛ فبعض البلدان العربية مثل تونس ولبنان – مثلا – قد تتضرر أكثر من الجزائر ومصر، بفعل محدودية المخزون.[٨] رغم اتجاه الكثير من الدول الإفريقية نحو اعتماد سياسة المخزون الإستراتيجي من المواد الزراعية، لمواجهة الأزمات المحلية أو الدولية، إلا أن الحصيلة تبدو متواضعة جدا، خاصة في دول غربي إفريقيا[٩].

لكن هل يمكن لبعض الدول الإفريقية الاستفادة من الظرفية الدولية الجديدة، بفعل الأزمة التي قد تخلفها الحرب الروسية الأوكرانية؟ إن زيادة الطلب العالمي على المحروقات – بفعل التخوف من توقف دخول الإنتاج الروسي للأسواق العالمية – وارتفاع أسعارها، سيعزز مكانة البلدان الإفريقية المنتجة للنفط والغاز، مثل: الجزائر ونيجيريا وغيرهما؛ والبلدان الأوروبية قد تتجه أكثر فأكثر نحو الدول الخليجية، وبعض الدول الإفريقية المنتجة للغاز والنفط، للحد من الاعتماد على السوق الروسية، وخاصة في حال استمرت الحرب لمدة طويلة. ويذكر في هذا المجال، كل من دول الموزمبيق وتنزانيا وموريتانيا السنغال... إلى جانب الجزائر وليبيا ونيجيريا...[١٠] وقد ظهرت على الساحة بعض البلدان الإفريقية، التي اكتشف فيها – مؤخرا – مخزون معتبر من الغاز أو النفط، مثل ساحل العاج وغيرها[١١].

لا يمكن في الوقت الحالي التنبؤ بمآلات الأزمة على القارة الإفريقية بعد نهايتها، ولا التكهن بالسلوك الروسي والغربي في إفريقيا، وإمكانية انتقال الصراع إليها في حال توسعه، ومدى انخراط بعض دولها في هذا النزاع الدولي، بسبب إمكانية نجاح المفاوضات بين كل من روسيا وأوكرانيا، والقبول ببعض الحلول الوسطية – مهما كانت مؤلمة للطرفين – والمرتبطة أساسا بالجذور الحقيقية للنزاع، وهي مصير المقاطعات الانفصالية الأوكرانية الشرقية في إقليم الدونباس والقرم، ومسألة انضمام أوكرانيا إلى حلف الناتو، باعتبار أن هذا يلبي المطالب الروسية. في المقابل قد تتجه روسيا نحو الاكتفاء بتحقيق هذه المطالب، وتمسك عن عدائها للحكومة الأوكرانية الحالية، أو العمل على إسقاطها، وتتراجع عن اشتراطها نزع سلاح أوكرانيا، وفي المقابل يبقى موقف الغرب من مثل هذا المخرج للأزمة مثار تساؤل، وهذا يتبع طبيعة الأهداف غير المعلنة للدول الغربية من دفع أوكرانيا نحو هذا المأزق، وهل في نية الولايات الأمريكية المتحدة حقيقة، توريط روسيا في حرب استنزاف طويلة الأمد لإضعافها، وبالتالي إمكانية وقوع تغيير على رأس السلطة في موسكو؟ وعلى هذا الأساس يتم إحباط أي أفق لتحالف روسي صيني يهدف إلى إحداث تغيير في النظام العالمي، والحد من القطبية الأحادية القائمة اليوم. فالمصير السياسي للرئيس بوتين، قد يكون مرتبطا إلى حد كبير بالمخرج الذي سيكون لهذه الحرب، والغرب مدرك لذلك، ويتابع عن كثب وجود بعض الإرهاصات الأولية والمحدودة، لحدوث تململ يستهدف الرئيس بوتين، لذلك يفترض تركيز التفكير اليوم على الأهداف البعيدة، والسلوكيات الغربية التي تحيط بهذه الأزمة، وخاصة حدة العقوبات وشمولها؛ لأن الحصار الاقتصادي التام لروسيا،

وعزلها عن العالم، قد يكون المأزق الحقيقي الذي أودى إليه الرئيس بوتين بلاده، ويتحمل مسؤوليته السياسية، وفي حال استمرت الحرب، ولم تنجح المفاوضات بين طرفي النزاع في الوصول إلى حلول وسطى، فستكون النتيجة كارثية على روسيا وحلفائها الدوليين، والجهات الإفريقية المراهنة على الدعم الروسي، أو استمرار التعاون معها. وبالتالي إمكانية خسارة روسيا للمواقع التي تمكنت منها في إفريقيا. ومهما تكن استفادة بعض البلدان الإفريقية من ارتفاع أسعار المحروقات، وازدياد أهميتها في الأسواق الدولية للنفط والغاز، فإن موجة ارتفاع الأسعار المتصاعدة ستستنزف المكاسب.

السيناريوهات المتوقعة

تختلف التوقعات لمختلف تداعيات الحرب الروسية الأوكرانية على مختلف الصعد في إفريقيا، وعموما هي اقتصادية وسياسية وأمنية، وخطورة تبعات الأزمة تكون بحسب طول أمد الحرب، وبالتالي انتشار أعمق لمفاعيلها على الشعوب والمجتمعات، ومن ثمة الاستقرار السياسي والأمني. فتضرر سلاسل الإمداد الغذائي والطاقي في العالم، سينعكس مباشرة بارتفاع أسعارها في مختلف الدول الإفريقية:

- ارتفاع أسعار المحروقات والمواد الغذائية الأساسية، مثل: القمح والذرة، سيؤدي حتما إلى ارتفاع تكلفة مستوى المعيشة اليومية في المدن والأرياف الإفريقية، وندرة بعض المؤن في الأسواق، وقد لوحظ حدوث مثل هذه التداعيات في ارتفاع أسعار بعض المؤن، منذ الأسبوع الأول لاندلاع الحرب في بعض البلدان الإفريقية، ويتوقع تفاقم ذلك في الأسابيع والأشهر المقبلة.
- تبعا لذلك، فقد تندلع احتجاجات شعبية في كبرى المدن والعواصم الإفريقية، تقودها الطبقات الوسطى التي يحتمل تدهور وضعها الاجتماعي، وتشارك فيها الفئات الشعبية والمهمشة، وخاصة في بعض البلدان الإفريقية، التي تشهد احتقانا سياسيا، لم يتحول إلى أزمات عميقة بفعل توازن نسبي، و إن كان هشا على المستوى الاجتماعي والاقتصادي.
- مثل هذه المفاعيل الاجتماعية والاقتصادية، قد تهدد استقرار بعض الأنظمة السياسية، خاصة منها تلك التي حصل لها في المدة القريبة الماضية تعاون مكثف مع روسيا، على حساب بعض القوى الغربية، وذلك مثل مالي وجمهورية إفريقيا الوسطى ... ومع استمرار الحرب، فقد يتراجع أو يتوقف الدعم العسكري الروسي لبعض الأنظمة الإفريقية، مما يجعلها أكثر هشاشة أمام انتفاضات شعبية، أو محاولات انقلابية جديدة ...
- طول أمد الأزمة العالمية المترتبة على الحرب الروسية الأوكرانية – في بعدها الاقتصادي والاجتماعي ومختلف انعكاساته – قد تضع أنظمة إفريقية حاكمة أخرى في قلب العاصفة، وذلك لعدم قدرتها على مواجهة انتفاضات شعبية جديدة، وهذه لا علاقة لها بانسحاب الدعم الروسي العسكري والمادي - مهما كان نسبيا – إنما بفعل عجزها ماديا عن المعالجة السريعة لتداعيات ظرف مستحدث، وغير متوقع.
- تردي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وزيادة البطالة، ولاستحداث متنفس لها ولو محدود، فقد تغض بعض الحكومات النظر عن استمرار تدفق موجات جديدة من المهاجرين غير النظاميين، تجاه السواحل الجنوبية لأوروبا، والسواحل الغربية لشبه الجزيرة العربية، مع العلم أن موجات المهاجرين من سواحل شمال إفريقيا لم تتوقف[١٢].
- توقف التعامل مع موسكو - في حال حجب روسيا عن «نظام سويفت» - سيعقد الصفقات والتعاملات التجارية بين العديد من الدول الإفريقية، التي تود الاحتفاظ بتعاملاتها ومصالحها مع روسيا.
- ولعل من بين تداعيات حرب روسيا على أوكرانيا، اضطرار موسكو لسحب مجموعة فاغنر من الدول الإفريقية المتواجدة فيها منذ أشهر أو سنوات، وهذا ستكون له بعض التأثيرات الجيوبوليتيكية.
- قد تفقد سوق الأسلحة الإفريقية أبرز مصادرها المتمثلة في السوق الروسية، بفعل انشغال موسكو بالحرب، وحاجتها لمخزونها من السلاح، وبفعل العقوبات الغربية على روسيا أيضا.
- في مثل هذه البيئة المتأزمة في إفريقيا، ومع إمكانية ظهور «مجاعات» في بعض البلدان، وانشغال الحكومات بمعالجة مفاعيل الأوضاع الجديدة، سيزداد ويتمدد نشاط الجماعات الإرهابية، خصوصا في دول الساحل والصحراء...
- كما يتوقع حدوث انفراجات مختلفة على المستوى الاقتصادي، نتيجة دخول غير متوقع لبعض الدول بسلعها – سواء في المواد الغذائية أو المحروقات - للأسواق العالمية، لتعويض النقص الحاصل، وذلك مثل قمح أستراليا، ونفط فنزويلا.

(1) Ernest Harsch, "Manifestations Contre la vie Chère," *Afrique Renouveau*, July 2008, https://www.un.org/africarenewal/fr/magazine/july-2008/manifestations-contre-la-vie-ch%C3%A8re.

(2) Poline Tchoubar, "La Nouvelle Stratégie Russe en Afrique Subsaharienne: Nouveaux Moyens et Nouveaux Acteurs," *Fondation Pour la Recherche Stratégique*, Note de la FRS n°21: 2019, https://www.frstrategie.org/publications/notes/nouvelle-strategie-russe-afrique-subsaharienne-nouveaux-moyens-nouveaux-acteurs-2019.

(3) "Mali, RCA... Pourquoi la Russie S'intéresse-t-elle de plus en Plus à l'Afrique Subsaharienne?," *rfi*, October 4, 2021, https://www.rfi.fr/fr/afrique/20211003-mali-rca-pourquoi-la-russie-s-int%C3%A9resse-de-plus-en-plus-%C3%A0-l-afrique-subsaharienne.

(4) SIPRI, *Les dépenses militaires mondiales s'élèvent à près de 2 000 milliards de dollars en 2020* (Stockholm: SIPRI, 2021), https://www.sipri.org/sites/default/files/2021-04/sipri_milex_press_release_fre.pdf.

(5) Trade statistics for international business development (Trade Map), *List of importers for the selected product. Product: 1001 Wheat and meslin. 2013-2020* (Trade Map, 2022), https://www.trademap.org/Country_SelProduct_TS.aspx?nvpm=1%7c%7c%7c%7c%7c1001%7c%7c%7c4%7c1%7c1%7c1%7c2%7c1%7c2%7c1%7c%7c1.

(6) Marie Toulemonde, "Comment Sortir l'Afrique de sa Dépendance aux Céréales Importées," *Jeune Afrique*, March 7, 2022, https://www.jeuneafrique.com/1324825/economie/comment-sortir-lafrique-de-sa-dependance-aux-cereales-importees/.

(7) Toulemonde, "Comment Sortir l'Afrique de sa Dépendance aux Céréales Importées".

(8) "La Filière Tournesol Secouée par l'intervention Russe en Ukraine," *rfi*, March 1, 2022, https://www.rfi.fr/fr/podcasts/chronique-des-mati%C3%A8res-premi%C3%A8res/20220228-la-fili%C3%A8re-tourne-sol-secou%C3%A9e-par-l-intervention-russe-en-ukraine.

(9) Estelle Maussion, "Afrique de L'ouest : où sont les Stocks Alimentaires ?," *Jeune Afrique*, March 6, 2022, https://www.jeuneafrique.com/1321559/economie/afrique-de-louest-ou-sont-les-stocks-alimentaires/.

(10) "Ukraine-Russie : pétrole, céréales, diplomatie… Quel sera le prix à payer pour l'Afrique?," *Jeune Afrique*, February 25, 2022, https://www.jeuneafrique.com/1319341/politique/ukraine-russie-diplomatie-petrole-diaspora-quelles-consequences-pour-lafrique/.

(11) Arthur Beaubois-Jude and Christophe Le Bec, "Les futurs rois africains du pétrole… et du gaz," *Jeune Afrique*, December 23, 2021, https://www.jeuneafrique.com/1250543/economie/les-futurs-rois-africains-du-petrole-et-du-gaz/.

(١٢) - «تونس.. وفاة ٩ مهاجرين وإنقاذ آخرين بعد غرق قاربهم في البحر المتوسط،» مهاجر نيوز، (١، مارس، ٢٠٢٢م)، http://www.infomigrants.net/ar/post/38863/تونس-وفاة9--مهاجرين-وانقاذ-اخرين-بعد-غرق-قاربهم-في-البحر-المتوسط.